ولكن هل كان من الضروري أن تكون وسيلة الرمز هي اللغة المنطوقة (لغة الكلام) أو المكتوبة؟ الا يمكن أن تكون هناك طريقة أخرى للتعبير من الأفكار والمشاعر وبذلك تكون اللغة مسوقة بوسائل وأساليب للتعبير غير لغوية؟

لا شك أن الإنسان قد تمكن خلال تاريخه الطويل من أن يخترع وسائل كثيرة ومتنوعة للاتصال غير اللغوي مثل الاشارات والإيماءات والحركات المختلفة، وهي مشكلة على جانب كبير من التعقيد، ويذهب الكثيرون إلى أنها أسبق في الظهور على لغة الكلام، ويقال انه يمكن عمل ما لا يقل من سبعمائة الف حركة أولية متميزة من طريق التغييرات الوجهية وأوضاع الذراعين والأصابع والرسغين وما إلى ذلك، وهذه الرموز الحركية تكفي لأن تزودنا بما نجده في أحد اللغات الحديثة من الرموز[1]. ويذهب العلماء التطوريون بالذات الى أن اختراع لغة تعتمد على الإشارات امر أسهل بكثير من اختراع تعتمد على الأصوات، ونظرا لإمكان البراعة فيها بسهولة فانه ثمة احتمالا بانها كانت اسبق على لغة الكلام المفصل ذي المقاطع. ومن هنا نجد انسانا مثل العالم الأنثروبولوجي الأمريكي لويس مورجان(Lewis Morgan) يقول ان الأصوات جاءت أولا كمعاونة للإشارات والايماءات والحركات، ثم اخذت تكتسب بالتدريج معنى متعارف عليه بحيث اصبح لها السيطرة والسيادة والغلبة على لغة الاشارات، أو على الاقل اصبحت جزءا هاما منها، ورغم كل ما احرزه الانسان من تقدم في هذا الصدد فلا تزال اللغتان (لغة الاشارة ولغة الكلام) غير منفصلتين، ولو كانت اللغة بمعناها الدقيق كاملة لكان استخدام الاشارة والحركة أمرا مصيبا، وكلما نزلنا في سلم التدرج اللغوي الصور الدنيا اللغة وجدنا عنصر الاشارة يزداد وضوحا ليس فقط من حيث العدد او الكم بل وأيضا من حيث تنوع الاشارات الى ان تصل الى اللغات التي تعتمد

---

[1] Ibid, p 11

على الاشارات لدرجة يصعب معها فهم ما يقال ان لم يكن مصحوبا بالإشارات والحركات والايماءات المناسبة[٢]

وتتفاوت الشعوب في اعتمادها على الاشارات والايماء تفاوتا كبيرا[٣] وان كان الشائع ان بعض الشعوب البدائية مثل الهنود الحمر في امريكا يعتمدون على الاشارات في بعض المواقف اعتمادا يغنيهم تماما عن اللغة، وذلك على الرغم من انهم حين يتكلمون لا يكاد يأتون بأي إيماءة من اي جزء من اجسامهم، والمعروف أن التخاطب بالإشارات قديم على اي حال مثل الاشارات التي يوجد لدى عدد من الشعوب البدائية كما كانت معروفة عند الاغريق بحيث ان اخبار حرب طروادة والانتصار فيها انتقلت من آسيا الصغرى الى اليونان عن طريق سلسلة من هذه الإشارات. ومنذ ذلك الحين اتخذت

---

[2]Morgan, lewis, H: Ancient society,(N.D.) P. 35, n.1.

ويبدو ان هذا التجاه نفسه كان سائدا عند بعض الكتاب الاقدمين، فقد لاحظ لوكريتوس lucretius عل ما يقول مورجان نفسه، ان الناس في الحقبة البدائية امكنهم عن طريق الأصوات والحركات والاشارات ان ينقلوا أفكارهم بشيء من التعثر بعضا لبعض، وذهب في ذلك ال ان الفكر سبق الكلام وان لغة الإشارة سبقت الكلام ذي المقاطع المتميزة، فلغة الإشارات او الحركات تبدو في نظره لغة بدائية وانها هب الأخت الكبرى للكلام المفصل، كما نها لاتزال هي اللغة العامة لدى الشعوب المتبربرة، وكذلك عند الشعوب الهمجية في حديثهم حين تختلف لهجاتهم loc, cit.

[٣] ومثال ذلك كما يقول الاستاذ اشلي مونتاجيو أن يهود جنوب شرق أوروبا والايطاليين يستخدمون الايماء وحركات الجسم كحركة اضافية ويعتمدون عليها اعتمادا كبير في التعبير عما يريدون قوله بينما لا تكاد شعوب اخرى تستخدمها على الاطلاق كما هو الحالي عند هنود امريكا او الإنجليز الذين يعرفون بالميل الى الاقتضاب وقلة الافصاح. وقد توجد لدى بعض هنود السهول مجموعة محددة من الإيماءات يستطيعون استخدامها في الاتصال بغيرهم، ولكن ليس ثمة مما يدل –على حد قول مونتاجيو– على أن لغة الأنسان كانت مسبوقة بمرحلة استخدمت فيها الإيماءات كوسيلة للاتصال بين الناس. انظر في ذلك: اشلي مونتاجيو المليون سنة الأولى من عمر الإنسان: ترجمة رمسيس لطفي، مؤسسة سجل العرب القاهرة ١٩٦٥، صفحة ١٢٧.

اشارات النار بمثابة (لغة) للتخاطب عن بعد، والمعتقد أنها هي التي أدت الى خلق الاشارات الضوئية التي تعتمد على انعكاس اشعة الشمس من مرايا على فترات معينة بطريقة فنية مدروسة، ويدخل في هذا النوع من التخاطب (لغة) الطبول التي تستخدم في كثير من أنحاء أفريقيا كما يدخل فيها ايضا الاشارات بالدخان التي يستعملها الهنود الحمر، وقد تتخذ بعض صور الاتصال غير اللغوي شكلا قريبا من الكلام مثل الأصوات التي يصدرها الانسان للتعجب او الاستنكار التي يصاحبها ايماءات من الراس مثلا للدلالة على النفي أو الأبحاث ، ومثل الصفير للاستهجان أو الاستحسان باختلاف المجتمعات، بل انه يوجد في بعض المجتمعات البدائية نوع من الصفير يستخدم للاتصال على مسافات بعيده كما هو الحال في جزر الكناري (Canary Islands) حيث تجد نوعا من الصفير المنتظم المدروس الذي يرتكز عل بعض الانغام الإسبانية[4] والأكثر من ذلك أن بعض اشكال الاتصال غير اللغوي تقترب من اللغة المكتوبة اقترابا شديدا، بحيث يعتقد بعض الكتاب انها مهدت الطريق لظهور الكتابة، مثل الرسوم النقوش التصويرية التي سبقت الإشارة إليها والتي نجدها لدى الجماعات البدائية التي لا يمكن الشك في قدرتها على الكلام او الحبال التي يصنع فيها بعض العقد اشكال مختلفة وغير ذلك من الوسائل والأساليب الي تشيع ليس فقط

---

[4] Pie.op. cit pp8-10

توجد لغة الصفير أيضا عند بعض القبائل الأصلية في المكسيك وهي تقوم في الأصل على أربعة انغام مختلفة، ويحتمل أن تكون قبائل ما قبل التاريخ التي كانت تعتمد كلية على قنص الحيوان تستخدم الصفير كوسيلة للاتصال، كما انه يمكن الان تدريب الاطفال في بعض القبائل على ممارسة الصيد والقنص بممارسة الصفير دون الكلام كوسيلة، اداة للتفاهم كما يحدث عند قبيلة سيرنو Siriono في بوليفيا اذ يعتمدون عل الصفير اثناء القنص ولا يتكلمون الا قليلا جدا بحيث ان بعض الرحالة القدامى اعتقدوا انهم يفتقرون الى وجود لغة يتفاهمون بها، انظر في ذلك:

Haymes, Dell H; A perspective for linguistic anthropology. In Sol Tax(ed): Horizons in anthropology. Aldine. Chicago 1964, pp. 103-104.

بين الشعوب البدائية كالهنود الحمر في أمريكا وبعض قبائل غرب أستراليا وسكان استراليا الأصليين، بل وايضا لدى بعض الشعوب التي بلغت درجة عالية من الحضارة مثل الصين القديمة. ويبدو أن هذه (اللغات) كانت تصل أحيانا الى درجة عالية من التعقيد. فعند الانكا Inca مثلا في البيرو نجد أن نظام التخاطب باستخدام العقد التي تصنع من الحبال كان يعتمد على حبال مختلفة الألوان بحيث يكون لكل لون وكل عقدة معنى معين بالذات. فالحبال الحمراء ترمز الي الجنود والصفراء للذهب، والبيضاء للفضة وهكذا . كما كانت عندهم عقدة واحدة تعقد بطريقة معينة لكي تشير الى الرقم ١٠، وعقدتان للرقم ٢٠ وعقدة مزدوجة للرقم ١٠٠ وهكذا. وكان يشرف على ذلك النظام العمل موظفون متخصصون يعرفون باسم (خازاني العقد): وكانوا هم الذين يتولون حل رموزها[٥].

***

[5] Pie.op. cit pp8-10